اساليب التعامل النفسي
في سياسة ملوك سلالة اور الثالثة (٢١١٣ـ ٢٠٠٦ ق.م)

م. د. مهدي ناهي مطير
مديرية تربية الرصافة الثانية/ وزارة التربية
Mhyastadh39@gmail.com

الخلاصة:

قد تبدو الدراسة عن موضوع الحرب النفسية في تاريخ بلاد الرافدين القديم ، والكشف عنه من خلال التفتيش بين ثنايا الركام الحضاري والمخلفات الأثرية أمراً فيه شيء من الغرابة ، نظراً للاعتقاد السائد بين الناس بأن هذا النوع من الحروب وما ينتج عنها من مخرجات سياسية وعسكرية هو من نتاجات الحضارة الغربية الحديثة ، وإن مصطلح "الحرب النفسية" قد ظهر حديثاً وبرز في القرن العشرين ، بينما نحن نبحث هن هذه الحرب في وقت أقدم بكثير من ذلك ، لكن هذا الشعور بالغرابة يتبدد ما أن نبين للقارئ بعض التفاصيل عن ما تم العثور عليه من مخلفات حضارية تبرز لنا ممارسة سكان بلاد الرافدين القدماء ، هذا النوع من الحروب فالحرب النفسية ممارسة قديمة جداً عرفها البشر ولجأ إليها الحكام والقادة الاذكياء منذ العصور القديمة .

وقد قدر لحضارة بلاد الرافدين القديمة والتي شهدت بواكير المنجزات الحضارية البشرية على وجه الاطلاق ، أن تضع أصول وقواعد التعامل النفسي مع الخصوم وهو ما يطلق عليه اليوم باسم (الحرب النفسية) فليس من المستغرب أن تشهد هذه البلاد التي علمت البشرية أصول الحضارة بأن تستعمل أسلوب التعامل النفسي كسلاح ضد أعدائها ، بل إن المستغرب أن لا نجد شيئاً من أساليب هذ الحرب في الركام الحضاري ، ولكن على الرغم من كل ما قدمته هذه الحضارة للبشرية ، والتي كان لها قدم السبق في تسلق سلم المجد الحضاري للبشرية ، إلا أنها عانت من التهميش وتعرضت وما زالت تتعرض للإغفال المتعمد والتجهيل المقصود وبالخصوص في الأدبيات الإعلامية العربية ، إذ لم يتجاوز ما كتب عنها في هذا المجال بضعة أسطر.

الكلمات المفتاحية : الحرب النفسية ، بلاد الرافدين ، الحضارة ، عصر سلالة أور الثالثة.

Methods of Psychological Dealing
In the Policy of Kings of the Third Dynasty of Ur

Dr. Mahdi Nahi Muttair
Second Rusafa Education Directorate/Ministry of Education
Mhyastadh39@gmail.com

Abstract

This subject about ((Methods of psychological dealing in the Policy of Kings of the Third Dynasty of Ur)) is one of the most important topic in ancient Mesopotamia , and especially in the New Sumerian period . So the process of searching in this topic especially in cuneiform texts , or searching through the inspection of the cultural relics or monuments , we regard this , something is

very strange , due the belief prevailing among the people , that this type of war and its consequences , and the resulting political and military outputs , also it is a product of modern western civilizations , and that the term (Psychological Warfare) has recently appeared and emerged in the twentieth century , while this study is try to searched in a time much earlier that this century .

So that feeling of strangeness may dissipate among the readers , when we find some details in cuneiform texts or in royal documentations , and some cultural and historical evidences , that confirms the practice of ancient Mesopotamians , this kind of war , and that Psychological War is an ancient practice and known to the ancient kings .

The civilization of Mesopotamia laid the first origins and general foundations for the Psychological Warfare , and set forth the principles and rules for Psychological treatments of liabilities , which is known to day (Psychological Warfare) , and it used the Psychological method of dealing as a weapon against their enemies .

Key Word: Psychological Warfare , Mesopotamia , civilization , Third Dynasty of Ur .

المقدمة:

سقطت الدولة الأكدية بعد حكم دام زهاء القرن والنصف على يد القبائل الكوتية ، وبذلك دخلت البلاد في فترة مظلمة ، إذ إن هذه القبائل بعد احتلالها لم تستطع ادارة البلاد بشكل كفوء فعانت المدن كثيراً تحت سيطرتها ، إلا أن بعضاً منها تمكنت من الاستقلال خلال العهد الكوتي مثل سلالة لكش الثانية ، إذ لم تكن السيطرة الكوتية شاملة لجميع بلاد سومر ، الأمر الذي شجع بقية المدن الأخرى التي شعرت بعالم الازدهار الذي كانت تعيشه سلالة لكش الثانية مقارنة مع ظروفهم الصعبة ومعاناتهم من الاحتلال الكوتي (جورج ، ١٩٨٤ ، ص٢٢٣) ، الأمر الذي أوجد حالة من الاستعداد للقيام بحرب تحرير شاملة ضد هذا المحتل ، والتي تعد أقدم حرب تحرير عرفها التاريخ ، وكانت هذه الحرب بحاجة إلى توفير جميع مستلزماتها ومن أهم هذه المستلزمات هو التعبئة النفسية والروح المعنوية لسكان بلاد سومر (فوزي ، ١٩٩٠ ، ص٨٦) .

وقد تمكن حاكم الوركاء "اوتو حيكال" من جعل أبناء المدن السومرية يلتفون حول قيادته لا سيما أنه قد وظف أهم العوامل عند السومريين ، إلا وهو العامل الديني من خلال الادعاء بأنه قد كلف من قبل الإله انليل بقيادة هذه الحرب ، وهي الخطوة الأولى التي تضمن له قبول الجميع بقيادته ، وبحسب الفكر السياسي لسكان بلاد الرافدين فإن الملوكية للآلهة وهي من تقوم بمنحها لمن تشاء (عبد الرضا ، ١٩٨١ ، ص٦٥٥) .

أما الخطوة الثانية من خطوات التعبئة النفسية والتحشيد الاعلامي الذي قام به "اوتو حيكال" من أجل رفع الروح المعنوية لسكان المدن السومرية ، فكانت التذكير بالأعمال القبيحة التي اقترفها الكوتيون تجاه السومريين ومقدساتهم ، فقد ذكر في نصوصه أنهم أهانوا الآلهة السومرية ، واستعملوا سياسة القمع والشدة ، وحتى القتل ضد أبناء سومر ، كما إنهم زرعوا الفرقة واثاروا العداوة بين السومريين ، وهي أسباب كافية بنظره لتجعل السكان يحملون السلاح ضدهم ، إذ لم يترك لهم خيار غيره (عبد العزيز ، ٢٠٠٤ ، ص٦٥٠) ، وقد ورد نص يؤكد ذلك جاء فيه : ((**انليل ملك الاقطار كلها ، كلف اوتو حيكال الرجل القوي ملك الوركاء ... بتحطيم ملك كوتي ، ثعبان وعقرب الجبل ، الذي حمل السلاح ضد الآلهة ،**

والذي نقل ملكية سومر إلى البلاد الاجنبية ، والذي ملاء سومر بالعداوة والذي فصل الزوجة ممن كان له زوجة ، والذي سلب الطفل ممن كان له طفل ، وأوجد العداوة والعصيان في البلاد ... وعلى الرغم من إن أحداً لم يتقدم ضده ، استولى على دجلة وساحل البحر ، وسد الطرقات العليا ، وجعل الاعشاب الضارة تنمو عاليا في طرقات البلاد)) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٦٩) .

لقد نجحت سياسة اوتو حيكال في التحشيد والتعبئة النفسية اذ استجاب الشعب لدعوته ، والتفت الجماهير من أبناء الوركاء حول قائدها واستعدت لمواجهة هذا العدو المحتل ، كانت نتائج هذا الاعداد النفسي مذهلة والاستجابة مثيرة للإعجاب ، وذلك بعد أن استكمل هذا القائد مستلزمات النصر ، وقدم قرباناً للآلهة وهي من الطقوس المهمة التي واضب ملوك الرافدين على القيام بها قبل التوجه للمعركة من أجل الحصول على مباركة الآلهة وضمان تأييدها لهم في الحرب وهو امر لا يمكن استبعاده عن قائمة الاعمال التي تدخل في برنامج الاعداد النفسي للجماهير ، لذا ورد بالنص :

((**زحف اوتو حيكال . الملك الذي منحه انليل القوة . الذي اختارته انانا إلى قلبها ، الرجل القوي ، الذي خرج من مدينته الوركاء وعندما وصل إلى معبد الإله اشكور قدم له قرباناً**)) (نواله ، ١٩٨٦ ، ص١٣) .

ثم ألقى اوتو حيكال خطاباً عاماً على الجماهير من أجل حثهم على الزحف معه إلى ساحة المعركة ، وهي خطوة أخيرة مهمة جداً ، إذ أن استعمال وسائل الاعلام من خلال المنابر لها أهمية قصوى في كسب تأييد الجماهير ورفع روحهم المعنوية قبل القتال ، أما مضمون الخطبة فكانت هي الأخرى متناسبة جداً مع الحدث فأزالت كل الشكوك والقلق الذي ربما كان في نفوس الناس من خطورة المهمة وعدم الاطمئنان بنجاح ثورتهم ، فقد ورد بهذا الخصوص:

((**وخاطب أهل المدينة قائلاً إن انليل قد أعطاني مهمة القضاء على الكوتيين**)) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٦٩) .

كان من نتيجة هذه الخطبة أن بددت هذه المخاوف من خلال اعلانه أمام الجميع أن الإله انليل قد أعطاه مهمة القضاء على الكوتيين فكانت النتيجة أن عم الفرح في نفوس سكان الوركاء وتخليهم عن مخاوفهم لأن انليل إذا قضى أمراً فلا شك في حصوله بحسب معتقداتهم كيف لا وهو من يمنح الملوكية وهو من يرفعها (عبد الرضا ، ١٩٨١ ، ص٦٥٦) ، فقد ورد في نفس هذا النص : ((**تمالك الفرح أهالي مدينة الوركاء وكولاب ، وتبعه أهالي مدينته كرجل واحد فقاد الجموع المحتشدة**)) (هاري ، ٢٠٠٩ ، ص ١٢٥) .

فتقدم الحاكم جموع أبناء مدينته الذين تمالكهم الفرح وهم يرون قائدهم يتقدمهم وواصلت قواته الزحف من الوركاء وكولاب لستة أيام ، وتم القبض على نائبي الكوتيين في سومر ، ثم هزمت قوات الكوتيين في موقعة فاصلة وأسر ملكهم "تريكان"[٥]، وأهله بعد أن حاول الفرار لكن تم القبض عليه وسلم للقائد اوتو حيكال ، وفي خطوة تهدف إلى اظهار قوة الحاكم وصلابته ، ومن أجل اذلال الملك الكوتي فقد وضع قدمه على رقبة تريكان وأصبح هو الحاكم على سومر بعد أن نجح في طرد الكوتيين من البلاد (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٧٠) ، فيقول اوتو حيكال بهذا الخصوص: ((**جلس اوتو حيكال وتريكان مضطجع عند قدميه ، فوضع اوتو حيكال قدميه ، وأعاد سيادة سومر إلى يديه**)) (هاري ، ٢٠٠٩ ، ص ١٢٥) .

لم يدم حكم اوتو حيكال طويلاً على بلاد سومر ، على الرغم من طرده للكوتيين إلا أن هذا قد مهد لقيام سلالة جديدة في مدينة اور، عرفت بسلالة اور الثالثة[٦] ، أي بعد سبع سنوات من طرد الكوتيين على يد اوتو حيكال تمكن أحد رجاله وهو "اور نمو" حاكم مدينة اور الذي نصب من قبل حاكم الوركاء من التمرد عليه ، وأعلن الانفصال عنه ، ولقب نفسة بألقاب تشير إلى أنه لا يعترف بحكم الوركاء فقد لقب (ملك اور نفسه ، ملك سومر واكد) ، مؤسساً بذلك سلالة اور الثالثة (٢١١٣–٢٠٠٦ ق.م) والذي يمثل واحداً من أروع عصور تاريخ بلاد الرافدين القديم (فوزي ، ١٩٩٠ ، ص ٤٧) .

كان من المتوقع أن يقوم السومريون بعمليات انتقامية من الأكديين رداً على ما تعرضوا له اثناء حكم سرجون وخلفائه ، إلا أن شيئاً من هذا القبيل لم يحصل ، إذ انتهج حكام سلالة اور الثالثة سياسة سلمية تجاه جميع أبناء بلاد الرافدين ، فبدأ من الالقاب التي تلقبوا بها والتي تعكس النهج الذي اختاره الحكام فقد تلقبوا بلقب (ملك سومر واكد) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٧٢) .

كما إن النظام الإداري الذي تبناه السومريون في هذا العهد لم يكن نظاماً عنصرياً ، إذ لم يفرق بين سومري وغيره ففي الوقت الذي اقتصر فيه الأكديين على أبناء جلدتهم فقط في شغل المناصب المهمة في الدولة ، واعتمدوا على العساكر في تثبيت سلطانهم ، نجد إن السومريين اختاروا حكام الاقاليم من أبناء الاقاليم نفسها ، الأمر الذي ضمن لهم امتداد دولتهم إلى مناطق حدودية واسعة لا تقل مساحة عن الدولة الأكدية ولكنها كانت أكثر انسجاماً ، فأصبحت الوحدة الإدارية الأساسية في بلاد عيلام وسوريا ولبنان ، فضلاً عن بلاد الرافدين هي (دولة المدينة) التي يقودها حاكم مختار من قبل انليل لقيادة مصائر الشعوب (جورج ، ١٩٨٤ ، ص٢٣٤) .

ولم يستعمل ملوك دولة اور سياسة الشدة والقوة والقهر مع حكام الاقاليم الحدودية ، بل اتبعوا بدل ذلك سياسة جديدة هدفها التأثير النفسي على زعماء الاقوام والقبائل لكسب ودهم وضمان ولائهم تمثلت بسياسة المصاهرة ، فقد زوّج شولكي[٥] بناته من حاكم اقليم "برخاشا" وحاكم اقليم "انشان" جنوب غرب ايران ، فقد ورد في إحدى حولياته : ((**السنة التي رقيت فيها "بيريج – ميداشو" ابنة الملك إلى حاكم مرخاشا "شولكي"**)) وهي السنة ١٧ من حكمه (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٧٢) .

ولكي يضع الملوك حداً لتمردات حكام الاقاليم التي كانت شائعة في عهد الأكديين نتيجة سياستهم المركزية المتشددة ، كانت السياسة الجديدة هي اعطاء استقلالية شبه تامة لحكام المدن (سامي ، ١٩٧٨ ، ص١١٥) ، إلا أن ذلك لا يعني ترك الأمور بدون اشراف ، إذ يقوم مفتشون ملكيون بزيارات مستمرة لهذه المدن والاقاليم (جورج ، ١٩٨٤ ، ص٢٣٨) .

أما حوليات الملوك والنصوص الملكية في هذا العصر فقد غاب عنها التفاخر بالحروب والابادة والتدمير والتخريب ، كما كنا نقرأ عن ملوك أكد ، بل أصبحت تعج بالمنجزات العمرانية من قبيل بناء المعابد وفي كل مكان ، وظهر ولأول مرة فن بناء الزقورة التي أقامها الملك "اور نمو" في مدن اور ، والوركاء ، واريدو ، ونفر ، فضلاً عن مدن عديدة أخرى ، والتي بقيت حتى الآن من أكثر نصب ومعالم هذه المواقع اثارة للدهشة والاعجاب ، وما زالت زقورة اور محافظة على شكلها الأصلي حتى اليوم رغم عاديات الزمن (Woolly , 1963 , p.345) ، كذلك كان الاهتمام واضحاً بشق الطرق والقنوات ، كما تم اعادة الصلات التجارية مع "مكان" و"دلمون" التي تعطلت أبان الاحتلال الكوتي ، وللقضاء على التلاعب بالأوزان قفد وضع شولكي مكيالاً جديداً للحبوب يسمى (كور شولكي) (طه باقر ، ١٩٧٣ ، ص٤٠٨) .

اقتصر استعمال القوة في هذا العصر على مورد الضرورة ولكي تبعث رسائل لكل من تسول له نفسه أن يعتدي على حدود هذه الدولة ، فكانت السياسة القائمة في هذا العصر سياسة متوازنة ما بين السلم مع كل من يرغب في العيش بسلام ، والشدة والقوة مع كل من تسول له نفسه التعدي على الغير سواء في الداخل من اللصوص والمتمردين ، كما ورد هذا في نص يعود للملك "اور نمو" يقول فيه : ((**تطهير الأرض من اللصوص وقطاع الطرق والمتمردين**)) ، أو من الخارج كما نجد هذا في حوليات الملك شولكي إذ ورد :

(**السنة التي دمرت فيها جانخار**) : "شولكي" وهي السنة ٢٥ .

(**السنة التي دمرت فيها سيموروم**) : "شولكي" وهي السنة ٢٧ .

(**السنة التي دمرت فيها سيموروم ولولوبوم للمرة التاسعة**) : "شولكي" وهي السنة ٤٧ (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٧٢) .

ولم يكن الاعداد النفسي للقيام بحملات عسكرية واستعداد الجماهير للانخراط في صفوف القوات المسلحة غائباً عن الذهنية السومرية ، فقد أدت السياسة المتوازنة التي استعملوها في إدارة الدولة إلى كسب ود الناس ، الأمر الذي انعكس ايجابياً على معنويات الجماهير واستعدادها للدفاع عن نظامها ، وهذا أحد أهم أهداف الحرب النفسية والتعبئة العسكرية ، كما تخبرنا بذلك إحدى حوليات شولكي ، فقد ورد فيها: ((**السنة التي انتظم بها مواطنو اور كحاملين للرماح**) : " شولكي" وهي السنة ١٩ (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٧٢) .

أما في مجال المسلات فقد غابت المشاهد الحربية عن مسلات ملوك هذا العصر بشكل تام تقريباً ، بينما طغى عليها الطابع الديني وهو ما يعكس ورع وتقوى ملوك هذا العصر ، إذ يظهر فيها الملوك وهم يسيرون بصحبة الآلهة لتقديم الصلوات إليها (أنطون،١٩٧٥،ص٢٢٨) .

لقد أدت هذه السياسة الحكيمة التي سار عليها ملوك دولة اور إلى رص المجموعات العرقية المختلفة مع بعضها وشجعت التقدم الاقتصادي والحضاري في المقاطعات البعيدة امنت في النهاية هذه السياسة سلما داخلياً دام معظم هذا القرن ، وهو ما يعكس التعامل النفسي الناجح لهؤلاء الملوك حتى وصل الأمر من القبول والرضا بهذه الحكومة أن بدأت النذور تصل بشكل طوعي إلى معبد اور (تيو ميتيف ، ١٩٨٦ ، ص١٢١) .

وفي هذا العصر شرع "اور نمو" أقدم مجموعة من القوانين في تاريخ البشرية[٤] ، تمتاز هذه الشريعة بأنها كانت أكثر إنسانية من الشرائع اللاحقة ، إذ ظهر أن بعض الجرائم على الاقل (كالأذى الجسدي) لم تكن تعاقب بالموت أو بتشويه أو قطع الاعضاء الجسدية ، كما هو الحال في شريعة حمورابي أو القانون العبري المتأخرين ، بل كان الجاني يرغم على دفع تعويض نقدي بالفضة تختلف زنته وفق درجة خطورة الجناية، وهذا يدل على وجود مجتمع راقٍ إلى درجة أعلى بكثير مما كان يتصور عادة (فوزي ، ١٩٧٩ ، ص٤٦) . كما يدلل على وجود سياسة قانونية تهدف إلى اشاعة الأمن والسلام من دون اراقة الدماء أو اشاعة سياسة الانتقام والقتل ، وهذه سياسة نفسية ناجحة تهدف إلى كسب قلوب السكان وولائهم لا بالقوة بل بالتأثير النفسي الايجابي.

أدت كل الاجراءات الدينية والعمرانية والاقتصادية والقانونية المتبعة في هذا العصر إلى انتشار حضارة السومريين في كل الشرق الأدنى القديم تقريباً ، فكانت هذا العصر هو ذروة الحضارة السومرية التي كانت تعتمد على الامتنان لآلهتهم المسؤولة عن نصرهم ورفاههم من خلال ابتداع اعمال فذة في كافة الميادين (جورج ، ١٩٨٤ ، ص٢٣٩) .

كانت سياسة التسامح التي انتهجها السومريون قد نشرت حضارتهم في مختلف البقاع لكنها في الوقت نفسه عجلت في زوال هذه الدولة نظر لتحين الكثير من الاقوام التي يغلب عليها عنصر البداوة ولم تصل بعد لما وصل اليه السومريون من تحض ، فقد دامت مدت حكمها زهاء قرن من الزمن (٢١١٢– ٢٠٠٤ ق.م) ، فهناك عوامل عدة عملت على انحلالها وانهيارها منها عوامل داخلية وأخرى خارجية .

إن أبرز هذه العوامل كانت هي قيام الآموريين[٥] بهجرة إلى بلاد الرافدين ، ففي إحدى حوليات الملك "شو- سين " وهو الملك الثالث من ملوك هذه السلالة نسمع لأول مرة عن غزو خطير لبلاد سومر قام به الاقوام البدوية ، الأمر الذي دفع هذا الملك إلى قيام بإجراء احترازي لمنع دخولهم إلى حواضر بلاد الرافدين ، إذ قام ببناء جدار محصن عظيم لإيقاف تلك القبائل عند حدها ، ففي الوصف المقدم لسنة حكمه الرابعة إنه قام بتلك السنة ببناء حصن المارتو وسماه (مورق تدنوم) (طه باقر ، ١٩٧٣ ، ص٤٠٣) ، كان دخول الآموريين إلى بلاد الرافدين ينذر ببداية حرب نفسية اعلامية خطيرة ، تستعمل فيها كل الوسائل المتاحة ، وتم توظيف كل الطاقات لصالح هذه الحرب كما سنرى.

فقد كان السومريون يعرفون جيداً اولئك الآموريين الرحل منذ عصر فجر السلالات كأشخاص تركوا قبائلهم للعيش والعمل في المدن ، وكان ينظر إلى حياتهم غير المستقرة باحتقار ، فقد ورد في أحد النصوص السومرية وصف لهؤلاء البدو الذين يجوبون بقطعانهم البادية السورية ما مفاده : ((**المار- تو**

الذين لا يعرفون الحبوب ، المار- تو الذين لا يعرفون البيت ولا المدينة ، اجلاف الجبال ....، المار- تو الذي يستخرج الكمأ ....، الذي لا يثني ركبتيه لزراعة الأرض ، الذي يأكل اللحم النيء ، الذي لا يمتلك منزلاً طوال حياته ، الذي لا يدفن بعد موته)) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٧٣) .

إن هذا التوصيف التي يمثل النظرة السومرية للآموريين ، دخلت في حيز الحرب الاعلامية الدعائية وهي جزء من الحرب النفسية ، لا سيما إذا عرفنا إن الأعمال التي قام بها الآموريين تستدعي التصدي لهؤلاء الغرباء الذين دأبوا على مهاجمة القرى والقوافل ، حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدن بلاد الرافدين المدينة تلو الأخرى كما ورد في هذا النص : ((**الذين يأتون من السهوب ويخرجون من كان قاعدا في المدينة**)) (جان ، ١٩٨٦ ، ص٢٤٠).

إلا أن هذه الحرب الدعائية لم تؤثر ذلك التأثير على الآموريين ، ولم تكن كافية لوقف هجماتهم ، حتى أصبحت طرق التجارة مهددة ، وأصبح التواصل ما بين المدن صعباً في ظل تواجد الآموريين الذين استقروا مع مواشيهم في معسكرات شبه دائمية (أوبنهايم ، ١٩٨٦ ، ص٤٩) .

سلط الآموريون ضغطاً متزايداً على حدود مملكة اور وتحديداً في السنة الخامسة من حكم الملك "ابي- سين" واندفعوا مخترقين خطوط الدفاع السومرية وتوغلوا عميقا في قلب بلاد سومر (جورج ، ١٩٨٤ ، ص٢٤٠) ، كما رافق هذا الاختراق الخارجي تفكك للجبهة الداخلية التي كانت يعمها الانشقاق والانهيار ، فقد استغل حكام الاقاليم ضعف إدارة الملك الجديد "ابي- سين" على أجزاء الدولة ، ونظراً لتمتعهم بصلاحيات شبه تامة ، فبدأت تشن حرباً نفسية على الحكومة المركزية من حكام الاقاليم ، فلم يعد هؤلاء الحكام يلتزمون باستعمال تاريخ الحوادث الرسمية المؤرخ بها مركزياً ، بل استعمل كل حاكم تاريخ خاص به (أحمد ، ٢٠١١ ، ص٩٧) ، وهذا يعني بالعرف السياسي السائد آنذاك في بلاد الرافدين خلع السلطة المركزية من أجل الضغط عليها ، وبالفعل بدأت السلطة في اور تفقد سيطرتها على اقاليم الدولة وهناك أدلة أخرى تشير إلى هذا الضعف ابرزها تهاون حكام الاقاليم في ارسال الحيوانات الخاصة بالقرابين إلى معبد الآلهة في اور منذ السنة السادسة من حكم "ابي- سين" (طه باقر ، ١٩٧٣ ، ص٤٠٥) . كما إن نصوص الفأل والتنبؤات التي دونت في العصور التالية وجدناها تشير إلى انحلال السلطة الداخلية وتمرد بعض الاقاليم بل وقيامهم بعصيان مسلح ، وبسبب هذا الضعف والتفكك انتهزت معظم المدن الفرصة واعلنت استقلالها عن السلطة المركزية فقد وجد حكام المدن السومرية المهمة إن من الحكمة التخلي عن ملكهم وحماية أنفسهم (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٩٢) .

وفي مقدمة هؤلاء الحكام الذين انتهزوا الفرصة "اشبي- ايرا" وهو أحد قادة الملك واصله جزري اكدي من مدينة "ماري"[٥]، إذ تبادل الملك "ابي- سين" عدة رسائل مع هذا القائد والتي تعد من اوضح المصادر التي تسلط الضوء على الوضع الحرج الذي مرت به الدولة في آخر أيامها ، وكذلك تظهر لنا مستوى الضغط النفسي الذي مارسه الآموريين من جهة و "اشبي- ايرا" من جهة أخرى على الملك وعلى حكام المدن والذي أسفر عن سقوط وزوال هذه الدولة من الوجود (جورج ، ١٩٨٤ ، ص٢٤٠) .

تحتوي الرسالة الأولى من هذه الرسائل على تقرير من " اشبي- ايرا " إلى الملك يتحدث فيها عن نتائج حملة بعثت لشراء الحبوب عهد بها "ابي- سين" إليه ، وتكشف الرسالة عن مستوى الخطر الذي مثله الآموريون بالنسبة للجهة الغربية من بلاد سومر ، كما تلقي الضوء على المشاكل التي يسببها العيلاميون للملك ، يبدأ "اشبي- ايرا" تقريره بقوله أنه قد نجح في شراء اثنين وسبعين ألف "كور" من الحنطة بالسعر العادي وهو "شيقل" ، واحد لكل كور من الحنطة ولكنه بعد أن سمع بأن الآموريين المعادين قد دخلوا إلى بلاد سومر واحتلوا الحصون العظيمة الواحد تلو الآخر فانه لم يرسل القمح إلى العاصمة اور ، وإنما أرسله إلى مدينة "ايسن"[٦]. إذ ورد بهذا الخصوص: ((**إلى "ابي- سين" مليكي قل هذا ما يقوله خادمك "اشبي- ايرا" ، لقد وليتني مسؤولية حملة إلى "ايسن" و "كزالو" لابتياع القمح لقد وصل القمح إلى سعر "كور" واحد لكل "شيقل" ... ولكن بعد الآن بعد أن سمعت الخبر بأن "المارتو" المعادين قد دخلوا بلادك جلبت إلى ايسن (٧٢٠٠٠) "كور" من القمح جلبتها كلها . والآن**

دخل المارتو جميعهم إلى وسط بلاد سومر واستولوا على الحصون العظيمة الواحد تلو الآخر)) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٨١) .

ثم يواصل التقرير بقوله بأنه لو أرسل إليه الملك ستمائة سفينة حمولة كل واحدة منها مائة وعشرين "كور" فإنه سيسلم القمح إلى مدن سومر المختلفة ، ولكن هنا يبدأ القائد باستغلال الحالة الحرجة للملك ويسلط عليه ضغطا نفسيا كي يعهد إليه أولاً إدارة تلك المناطق التي ترسو فيها السفن ، إذ ورد في الرسالة نفسها : ((**وبسبب المارتو إنني غير قادر على نقل القمح إنهم أقوى بكثير مما أقدر عليه وإنني مشلول الحركة ليكن عند مليكي (٦٠٠) سفينة سعة كل منها ١٢٠ كور ..... واجعلني مسؤولاً عن المواقع التي سترسو فيها السفن ..... أن لدي من القمح ما يكفي مدة (١٥) عاما ليسد جوع قصرك ومدنه . يا مليكي ضعني مسؤولاً عن الاشراف على "ايسن" و "نفر"**)) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٨١) .

لقد أصبح القمح الذي بيد اشبي ايرا حبل الخلاص بالنسبة لمدينة اور وملكها ولذلك فإن الطلب المهذب من اشبي ايرا ليمنحه الملك إدارة المدن الواردة في الرسالة ما هو إلا شرط مسبق مقابل ايصال القمح وهذا ما يعد اليوم الاستعمال الامثل للعامل الاقتصادي كسلاح مهم في الحرب النفسية. ولم يكن أمام الملك من خيار سوى الرضوخ لشروط اشبي ايرا ، وكان الوضع في العاصمة اور أصعب مما كان متصوراً ، فلم تكن الحنطة هي وحدها المفقودة بل حتى النقود لم تكن متوفرة حتى اضطر الملك إلى مصادرة املاك المعابد من أجل تأمين ثمن للحنطة فقد ورد في الرسالة الجوابية من الملك لاشبي ايرا : ((**الذهب والفضة والبرونز والنحاس ، وزن "سعر" الاشياء المصنعة منها ، والتي أخذت من معابد الآلهة والمزارات ، المختلفة ثمن شراء الحنطة**)) (حسين ، ٢٠٠٨ ، ص٢٦٣) .

لم يتوقف طموح اشبي- ايرا عند الحصول على المدن التي ذكرت في الرسالة بل تعدها إلى مواقع أخرى ، فقد اتخذ من "ايسن" عاصمة له واخضع مدينة "نفر" ومد نفوذه على طول نهري دجلة والفرات حتى وصل إلى الخليج العربي ، ولم يكتف بذلك بل إنه بدأ يساوم حكام المدن على ولائهم للملك فقام بأسر من ظل محافظاً على ولائه واعاد من طردهم الملك بسبب خيانتهم إلى مراكزهم القديمة (جورج ، ١٩٨٤ ، ص٢٤١) . طبعاً هذه المعلومات لم ترد في مراسلات اشبي- ايرا مع الملك بل من رسالة كتبت إلى الملك من قبل "بوزور- نوموشدا" حاكم مدينة "كزالو" وهي إحدى المدن التي تقع على ضفاف نهر دجلة ، فقد ورد في هذه الرسالة : ((**إلى "ابي- سين" مليكي قل ، هذا ما يقوله خادمك "بوزور- نوموشدا" إن رسول "اشبي- ايرا" وضع عينه عليّ قائلاً إن مليكي "اشبي- ايرا" أرسل الرسالة التالية: إن انليل أعطاني بأمره البلاد وامرني بأن أجلب إلى حضرة الآلهة "نينسينا" المدن ومعسكرات ضفاف نهري دجلة والفرات و..... وجعل مدن سومر مستوطنة بالناس، فلماذا أنت الآن تقاومني؟ واقسم باسم "داجان" إلهي بأن ليس لي إلا النوايا الحسنة نحو "كزالو" ..... لقد وقع ما قاله تماما فقد شيد جدار "ايسن" ... واستولى على نفر ووضع الحراس عليها ... وقف اشبي- ايرا على رأس قواته واستولى على ضفاف دجلة والفرات**)) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٨٢) .

كان لهذه الافعال التي قام بها "اشبي- ايرا" وقعا نفسياً خطيراً على نفوس من بقي موالياً للملك وأصبح في موقف خطير هل يبقى على عهده للملك ولكنه سيواجه خطر الاستيلاء على مدينته من قبل اشبي ايرا ، أم إنه ينحاز إلى جانبه ويترك عهده للملك وبهذا قد تناله لعنة الآلهة ، لم يعد هناك من يساعد من لا يزال محافظاً على ولائه كما يخبرنا حاكم "كزالو" في الرسالة نفسها : ((**إن الرعب يسيطر عليّ بشدة ، لقد ركز عينيه علي ليعرف مليكي بانه لا حليف لي ، ولا يسير أحد بجانبي وأنه منذ أن أدركني .... اسيراً وحيداً**)) (صموئيل، ١٩٧٣ ،ص٤٨٢).

إن للحرب النفسية تأثيراً قوياً في الحروب فهي تهدف إلى تحطيم معنويات العدو وتجعل من الاستسلام أقرب خيار له ، على الرغم من أنه لا يزال يمتلك اسباب الانتصار، وهذا ما يحصل فعلا مع حاكم "كزالو" ، فعلى الرغم من امتلاكه قوات مختارة ومدربة وضعها الملك تحت تصرفه إلا أنه لم

يجرء على استعمالها ضد اشبي- ايرا وهذا هو هدف الحرب النفسية تماماً حيث نقرأ في الرسالة الجوابية من الملك يقول فيها: ((**إلى "بوزور- نوموشدا" حاكم كزالو قل هذا ما يقوله مليكك "ابي- سين" : منذ ان اخترت لك قوات ..... وضعتها تحت تصرفك حكاكم "كزالو" أليست قواتك كما في حالتي ، وهي شهرت لك ؟**)) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٨٢) .

حاول الملك أن يرفع من معنويات انصاره من خلال التأكيد على إن النصر سيكون حليفه هو وانصاره ما دامت الآلهة تقف إلى جانبهم وأن "اشبي ايرا" لديه أهداف خبيثة فهو أولاً ليس سومرياً وثانياً يريد أن يقسم بلاد سومر ، ولأجل منعه من تحقيق أهدافه فإن الملك يطلب من حاكم "كزالو" أن يجلب له العون حتى يتمكن من احياء الكلمة الطيبة ، وهذا يدخل في سياق الحرب النفسية التي تهدف إلى رفع المعنويات والاستمرار في مقاومة الاشرار فجاء بالنص : ((**والآن أعطى انليل الملكية لرجل لا قيمة له إلى "اشبي- ايرا" الذي هو ليس من بذرة سومرية ..... الأب انليل أمر بكل تأكيد بما يأتي : "ما دام فاعلوا الشر موجودين في اور فإن "اشبي- ايرا" رجل ماري سيهدم أساسها وسيقسم بلاد سومر" .... أما الآن فاجلب إلى هنا العون من أجل احياء الكلمة الطيبة ولوضع حد للتضليل ... لا تنصرف ولا تكن ضدي إن يده لن تنال المدينة ولن يمارس رجل ماري السيادة وفقا لخطته العدائية**)) (صموئيل ، ١٩٧٣ ، ص٤٨٢) .

إن هذه المراسلات تمثل دليلاً واضحاً على معرفة سكان بلاد الرافدين بأساليب الحرب النفسية وآثارها المدمرة ، وكما استعمل "اشبي- ايرا" الحرب النفسية كسلاح للوصول لأهدافه فقد استعمل الملك "ابي- سين" الحرب النفسية الوقائية للحفاظ على ملكه وسلطانه . وفي الوقت الذي كان الملك يحارب من الآموريين واشبي- ايرا من الجبهة الغربية فإن الضربة القاضية جاءت من الجهة الشرقية ، عند وصول العيلاميون إلى أسوار مدينة اور وهاجموها وقاموا باحراقها وأخذوا الملك "ابي- سين" أسيراً إلى بلاد عيلام حيث توفي هناك بعد عدة سنين ، وبهذا اسدل الستار على آخر حكم سياسي سومري إلى الأبد ، وبقيت مأساة اور ماثلة أمام أعين سكانها ولعدة أجيال في قصائد نظمت لرثاء هذه المدينة ، وظهر لون من ألوان الادبي الرافديني وهو أدب الرثاء والذي يهدف إلى التذكير بالمصيبة التي وقعت على مدينة اور من أجل أن تعرف الاجيال اللاحقة حجم الدمار الذي لحق بهذه المدينة (حكمت ، ٢٠٠٨ ، ص١٠) ، ففي مطلع إحدى هذه القصائد: ((**عندما اطاحوا ، عندما خربوا النظام ، استهلك العيلاميون كل الاشياء مثل الطوفان ، لقد غيروك يا سومر ، وطردوا السلالة المقدسة من المعبد ، وخربوا البلاد وهدموا المعبد ، اخذوا حكم البلاد ، وبأمر انليل سقط النظام حمل ابي- سين المقدس إلى عيلام**)) (سامي ، ١٩٧٨ ، ص١٢٥) .

الهوامش :

[١] تريكان : هو آخر ملوك الكوتيين وقد حكم (٤٠) يوما فقط كما ورد ذلك في جداول الاثبات السومرية ، ينظر: طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، (بغداد ، مطبعة الحوادث : ١٩٧٣م) ، ج١، ص٣٩٣.

[٢] وهي السلالة التي أسسها حاكم مدينة أور "اور- نمو" والتي سيطرت على جميع المدن السومرية والأكدية خلال مدة حكمها والذي دام قرناً من الزمن أو يزيد قليلاً (٢١١٢- ٢٠٠٤ ق.م) وضمنت لبلاد الرافدين قرناً كاملاً من السلم والازدهار ، إذ يعد عهدها عصر نهضة لا مثيل له في كل ميادين الفن والادب السومري فشيدت المعابد واقيمت الزقورات العالية ودونت القصص واخبار الملوك والحكام ، ينظر: عبد القادر الشيخلي ، الوجيز في تاريخ العراق القديم ،(بغداد ، مكتبة عدنان : ٢٠١٤م)، ص١١٩ .

[٣] شولكي: هو ابن وخليفة اور- نمو دام حكمه مدة سبع واربعين سنة قام خلال هذه الفترة بالعديد من النشاطات العسكرية والعمرانية فكانت حملاته العسكرية متركزة في جبال شمال بلاد الرافدين . للمزيد ينظر: جورج رو ، العراق القديم ، ص٢٣٣.

[٤] يعد قانون اور- نمو اقدم قانون مكتشف حتى الان ليس في العراق فحسب بل في العالم قاطبة ، وقد تم التعرف على بعض اجزاءه مدونة بالخط المسماري وباللغة السومرية على لوح من الطين وجد في حالة رديئة جدا في مدينة "نفر" في

مطلع القرن العشرين ، ينسب هذا القانون كما تشير مقدمته الى الملك "اور- نمو" (٢١١٣-٢٠٩٥ ق.م) مؤسس سلالة اور الثالثة .عامر سليمان ، القانون في العراق القديم دراسة تاريخية قانونية مقارنة ، (الموصل ، دار الكتب للطباعة : بلا ت) ، ص١٩١ .

[٥] الآموريين : هم اقوام جزرية بدوية عرفوا بالاموريين باللغة الأكدية اما التسمية السومرية "المارتو" استوطنوا البادية السورية قبل انسلالهم الى بلاد الرافدين ، وقد سميت احدى سني "شار كالي شاري" اخر ملوك الدولة الأكدية بالسنة " التي انتصر فيها على آمورو فوق جبل بسار" . للمزيد ينظر : جان بوتيرو ، الشرق الادنى الحضارات المبكرة ، ترجمة : عامر سليمان ، (الموصل ، مطبعة جامعة الموصل : ١٩٨٦م) ، ص٢٤٠.

[٦] مدينة ماري: مدينة قديمة تعرف باسم تل الحريري تقع على بعد ١١ كم شمال غرب بلدة البو كمال عند الحدود السورية العراقية . صموئيل نوح كريمر ، السومريون ، ص٧٤.

[٧] مدينة ايسن: تقع اثارها حاليا قرب عفك ويطلق اسمها على السلالة التي تمثلها القبائل الاموروية القادمة من بلاد سوريا القديمة والتي انتشرت في معظم مدن العراق وكونت عددا من السلالات الحاكمة اثر ضعف السلطة المركزية التي كانت تمثلها سلالة اور الثالثة في بداية الالف الثاني ق.م . ينظر: ستين لويد ، فن الشرق الادنى القديم ، ترجمة : محمد درويش ، (بغداد ، دار المأمون : ١٩٨٨م) ، ص١٣٨.

المصادر:

- Ahmed Malik Al-Fyan, Studies in Ancient History, (Baghdad, Adel Library: 2011 AD).
- Anton Murtkat, Art in Ancient Iraq, Translated by: Issa Salman and Salim Taha al-Takriti, (Baghdad: Ministry of Information: 1975).
- Theo Mitev, The Economy of the State in Ancient Sumer, Ancient Iraq, a group of Soviet scholars, translated by: Salim Taha Al-Tikriti, (Baghdad, House of General Cultural Affairs: 1986 AD).
- Jean Botero, The Near East Early Civilizations, translated by: Amer Suleiman, (Mosul, Mosul University Press: 1986 AD).
- George Rowe, Old Iraq, translated by: Hussein Alwan Hussein, (Baghdad, Ministry of Culture and Information Publications: 1984 AD).
- Hussein Ahmed Salman, Writing History in Mesopotamia in Light of Cuneiform Texts, (Baghdad, Dar Al-Kitab Printing: 2008 AD).
- Hikmat Bashir Al-Aswad, Literature of Elegy in Mesopotamia, (Damascus, Dar Al-Zaman Publishing: 2008 AD).
- Sami Saeed Al-Ahmad, Introduction to the History of Ancient Iraq, (Baghdad, University Press: 1978 AD).
- Steen Lloyd, The Art of the Ancient Near East, translated by: Muhammad Darwish, (Baghdad, Dar Al-Ma'mun: 1988 AD).
- Samuel Noah Kramer, The Sumerians, Their History, Civilization, and Characteristics, translated by: Faisal Al-Waeli, (Kuwait: Publications Agency, 1973 AD).
- Taha Baqir, Introduction to the History of Ancient Civilizations, (Baghdad, Al-Hawadith Press: 1973 AD), vol. 1.
- Amer Suleiman, Law in Ancient Iraq, a comparative historical-legal study, (Mosul, Dar Al-Kutub Printing: Blatt).

- Abd al-Rida al-Ta'an, Political Thought in Ancient Iraq, (Baghdad, Dar al-Rashid for Printing and Publishing: 1981 AD).
- Abdel Aziz Saleh, The Ancient Near East (Egypt and Iraq), (Cairo, Anglo-Egyptian Library: 2004 AD).
- Abdul Qadir Al-Sheikhli, Al-Wajeez in the History of Ancient Iraq, (Baghdad, Adnan Library: 2014 AD).
- Fawzi Rashid, Abu-Sin, the last king of Ur III, (Baghdad, General Cultural Affairs House: 1990 AD).
- , Prince Gudia, (Baghdad, General Cultural Affairs House: 1990 AD).
- , Old Iraqi Laws, (publications of the Ministry of Culture and Information: 1979 AD).
- Leo Oppenheim, Mesopotamia, translated by: Saadi Faydi Abdel Razzaq, (Baghdad, General Cultural Affairs House: 1986 AD).
- Nawala Ahmed Al-Mutawali, Studies in Unpublished Cuneiform Texts from the Third Dynasty of Ur, unpublished master's thesis, University of Baghdad, College of Arts, Department of Archeology, (Baghdad: 1986 AD).
- Harry Sacks, The Babylonians, translated by: Saeed Al-Ghanimi, (Benghazi, New Books House for Printing and Publishing: 2009 AD).
- 22 - Leonard Woolly , "Ur and the Sumerians" , The World of the Past , (New York , 1963) , p345